٧٣-سورة المزمل

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع و العشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

علي محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م

سورة المزمل مكية

وهى عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾

فواتح هذه السورة من أوائل ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم بعد سورة (اقرأ باسم ربك) . وكان من خبر ذلك أن العناية الإلهية بعدما أعدت نفسه الشريفة لقبول الوحى — وكان فى الأربعين من عمره — نزل عليه جبريل وهو فى غار حراء ، فألقى عليه : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) ، فكان أمر العلم والتعلم أول ما قرع قلبه الشريف من قوارع الوحى السماوى والتعليم الإلهى . وإذ لم يكن له صلى الله عليه وسلم عهد بتلقى وحى ومخاطبة ملك ذعر منه [1] وظنه مسا أو عارضا عرض له . والمرء فى مثل هذه الحالة لا يجد مسكا لروعه ، مخففا لهواجسه — مثل الالتجاء إلى بيته ، وبث شكواه إلى زوجه . ففعل صلى الله عليه وسلم ذلك . وكأنه خاف أن يفجأه من أمر الملك ثانية ما فاجأه أولا ، فألقى نفسه فى فراشه ، وقال للسيدة خديجة زوجه : زملونى زملونى ؛ أى لففونى بالثياب . فيشبه أن يكون قد أراد بذلك الاستخفاء عن الملك ؛ وإراحة نفسه من عناء الطارئ الجديد ، وما خامر قلبه من الهول الشديد . ولم يدر أنه الناموس الذى كان ينزل على إخوانه الأنبياء والمرسلين قبله ، أو أن طلبه التلفف بالثياب كان لقشعريرة برد شعر بها فى جسمه .

(١) وشأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى حصول الذعر والاضطراب والغيبوبة له عند نزول الوحى عليه كشأن جده ابراهيم عليه السلام فى ذلك ، ففى قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست فى ترجمة إبراهيم الخليل : (ولما كان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة ظهر له الله على أسلوب غريب امتلأ منه رعبا وخوفا وسقط على وجهه) (ولما قاربت الشمس الزوال وقع على إبراهيم سبات مصحوب" برعبة مظلمة "وفى خلالها أوحى إليه ببعض الحوادث الخطيرة التى تجرى فى مستقبل أيامه ونسله من بعده) اه .

ولما عاد إليه الملك مرة ثانية وجده صلى الله عليه وسلم متزملا فى قطيفة ، فقال له : ﴿ يأَيها المزمل . قم الليل الخ ﴾ وهى فاتحة سورتنا هذه . ثم جاءه مرة أخرى وكان متدثرا أى متلففا كذلك بكسائه ، فقال له : (يأَيها المدثر قم فأنذر الخ) وهى فاتحة السورة الآتية . والسبب فى الخطاب فيها كالسبب فى الخطاب فى هذه السورة على ما سيأتى . وفى كلتا الحالتين كان صلى الله عليه وسلم غير متثبت من أمر الوحى لأول نزوله عليه ، فكان يريد أن يتجنبه بالتزمل والتدثر ، وعدم التعرض للهاتف ، حتى تحقق الأمر أخيرا ، وعلم أنه جبريل عليه السلام : يأتيه بالوحى ، ويبلغه أمر الله . وقد كان للسيدة خديجة رضى الله عنها الموقف العظيم فى تثبيت قلبه ، وتهدئة روعه ، وكشف الهواجس عن خلده ، كما هو مبسوط فى كتب السير .

و" المزمل " و" المدثر " من " تزمل وتدثر " قلبت تاءاهما زاياً ودالا ، وأدغمتا فى الزاى والدال الأصليتين ، واجتلبت الهمزة فى أول كل منهما لأجل التوصل إلى النطق بالساكن ، فقيل " ازَّمل وادَّثر " . واسم الفاعل منهما " مُزَّمل ومُدَّثر " .

أما خطاب الملك لنبينا صلى الله عليه وسلم بيأَيها المزمل ، وتبليغه أمر ربه بقيام الليل وترتيل القرآن ، وبقية الأوامر والإرشادات التى ستسمعها فى هذه السورة — فالقصد منه إفراغ الأمة المحمدية فى قالب متين من التربيتين الجسمية والروحية . فالشارع الأعظم لم يهملنا من بيان الطرائق التى تؤدى إلى توفر هاتين التربيتين فينا ؛ فهو لم يكتف بما كان عند أسلافنا العرب من القوة الفطرية الراسخة فى نفوسهم وأبدانهم ، بل شرع لهم من طرقها ووسائلها مايزيدها رسوخا فيهم ؛ فيستفيدون من هذه التربية فيما ندبوا له من القيام بالأعمال الجلى . كما أن هذه التربية نفسها تق أبناءهم الآتين مضرات الترف والدعة وبلهنية العيش التى سيصبحون معرضين لها بسبب الفتح واستبحار العمران ، والتبسط فى مناحى الحضارة . فالتكاليف الشرعية المتعلقة بالبدن مثل المحافظة على الصلوات الخمس ، والقيام من آخر الليل لصلاة الفجر ، والوضوء بالماء البارد مرارا ، والاغتسال به أحيانا ، وكالصوم فى أيام الحر ، والقيام للسحور من آخر الليل ، وكالحج وتحمل مشقات السفر لأداء فريضته ، والإحرام والسعى والطواف ، وكالجهاد وما ينطوى تحته من ضروب المشقات والأتعاب — كل ذلك يورث أبداننا صلابة ونفوسنا قوة تساعدنا على الثبات فى معترك الحياة العام ، وتكون عونا لنا على نشر تعاليم الإسلام بين الأنام . سئل غاندى الزعيم الهندوسى المشهور عن تذكاراته فى السجن فقال : " إن أعظم شىء حصلت

قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ

عليه فى السجن هو تعودى احتمال متاعب الجسد، فقد كنت أجد أن قوتى الروحية تزداد نشاطا، وإننى أعتقد أن الله يقوى ويساعد المظلومين، وذلك يجعلهم يقاسون الأتعاب الجسدية كامتحان لقواهم الروحية " اه .

فالتكاليف السماوية تقوى الجسم بسبب تمرسه بها ، وتعرضه لها المرة بعد المرة . وتقوى النفس أيضا بسبب أنها تصبح حاكمة على الجسد نافذة الإرادة فيه، مصرفة له فيما تريد، ولا تكون لشياطين الأخلاق الرديئة — كالكسل والاسترخاء والجبن والإهمال — سلطة عليها . بل إن افتراض الزكاة نفسها فيه تعويد النفس قهر شيطان البخل ، والتفصى من سطوته ، وخفى وسوسته . وبذلك تصبح النفس قوية العزيمة ، نافذة الكلمة فى مملكتها البدنية . وفى القرآن الكريم آيات جمة تتضمن الحض على تقوية الجسم والنفس والتمسك بأسبابها . وهذا الحض السماوى يُلْقَى على المخاطبين بأسلوب عجيب لا يتفطن له إلا بعد تأمل وإمعان نظر . وقد يقرأ القارئ آية من القرآن يحسبها ترمى إلى ممارسة عبادة ما ويكون هناك حكم وأسرار أخرى أعم وأشمل وأعلق بالتربية الاجتماعية من التربية الجسدية . من ذلك هذه الآيات التى افتتحت بها هذه السورة .

فقوله : ﴿ يأيها المزمل ﴾ ، أى يأيها الذى تلفف بقطيفته، واضطجع بزاوية بيته ، وقد أشبه فى فعله هذا من يؤثر الدعة والسكون ، ويحاول التخلص من صعوبة ما يوكل إليه من أمر يعنيه أو مصلحة تهمه : ﴿قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه﴾ أى دع التزمل والتلفف، وانشط لصلاة الليل والقيام فيه ساعات . والواجب أن تكون هذه الساعات طويلة بحيث لا تقل عن ثلث الليل ؛ خشية ألا يكون لها تأثير فى الجسم والروح ، كما لا تزيد عن الثلثين خشية أن يؤدى القيام إلى عكس المراد منه ؛ فيضعف جسمك ، وتتضاءل قوتك ، فلا تعود قادرا على تحمل أعباء التبليغ ، ومعاناة شئون الدعوة . فقوله (قم الليل إلا قليلا) معناه لا تقمه كله . ثم فسر ذلك بقوله نصفه ، أى قم نصفه ، أو أقل من النصف قليلا ، أو أكثر منه يعنى قليلا . وهذا هو معنى ما قلناه : أن المكلف به هو ساعات تختلف بين الثلث والثلثين لما بينا من الحكمة فى ذلك .

وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ

﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أى اقرأ القرآن أثناء قيامك فى الليل قراءة تَثَبُّتٍ وتؤدة : آية إثرآية كيما يرسخ فى نفسك معنى الوحى السماوى ، وتفهم مغزى الخطاب الإلهى فهم إحاطة واكتناه . ولا تسرده سردا يضيع معه التدبر وفهم المعنى . يقال كلام رَتَلٌ ورَتِل إذا كان مرتَّلا مفصلا كما يقال ثغر رَتَلٌ ورَتِل إذا كان مفلجا مفرجا .

لاجرم أنه صلى الله عليه وسلم قد تأدب بأدب القرآن وتأسى به أصحابه الأبرار، فأطاعوا ربهم فى إحياء الليل ، والتخفف للصلاة ، ومجاهدة النفس ، حتى شحبت ألوانهم ، وذبلت أجسامهم ، وتورمت أقدامهم . وقد رحمهم ربهم فأنزل على نبيه مؤذنا له بأنه بلغ من المجاهدة والعبادة وقيام الليل فوق ما كلفه ، فقال تعالى : (طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى) .

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم باطّراح النوم ، والوثوب إلى العمل ، وأن يصلى فى الليل ساعات طويلة ، وأن يتفهم الخطاب الإلهى المتعلق بهداية المكذبين ومحاجتهم فيما يعبدون من دون الله — انتقل إلى بيان السبب فى هذه الأوامر الثلاثة ذات التكليف الشاق فقال : ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ أى إننا سننزل عليك وحيا يتضمن الدعوة إلى دين جديد ، وحمل الناس عليه ، وتكليفهم العمل بأحكامه . فهو بالطبع سيكون ثقيلا شديد الوطأة عليهم ، لما فيه من ترك ما ألفوه من العقائد ، ونبذ ما ورثوه عن أسلافهم من التقاليد . فأنت يامحمد معرض لمتاعب كثيرة ، وأخطار جمة ، فى سبيل هذه الدعوة ، وحمل البشر على قبولها . فكيف يمكنك أن تقوم بهذه المهمة وأنت على مانرى من التزمل والتلفف والنوم والعزلة وملازمة الراحة والسكون ، والبعد عن المشاق وقهر النفس وحملها على العبادة والمجاهدة الطويلة ، وعدم دراسة الوحى الإلهى درس تفهم وتدبر ؟ فانشط من مضجعك إذن ، واسهر معظم ليلك ، وادرس آيات القرآن درسا عميقا ، استعدادا لتحمل مشاق الدعوة ، ومتاعب تبليغ هـذا الوحى الشـديد ، والدين الجديد .

وكأن هناك سائلا يشك فى أن قيام الليل ودرس القرآن مما يساعد على تحمل متاعب الدعوة ، فرجع الخطاب الإلهى إلى تقرير هذه الحقيقة فقال : ﴿ إن ناشئة الليل الخ ﴾ .

ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾

و (ناشئة الليل) ما يحدث فيه ويتجدد من الطاعات والعبادات : من نشأ إذا حدث وتجدد. ومعنى ﴿ أشد وطئًا ﴾ أصعب على النفس وأثقل مما لو أنشئت فى النهار . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم اشدد وطأتك على مضر" .

والمعنى أن ما ينشئه المرء ويحدثه من طاعة وعبادة يقوم لها من مضجعه بعد هدأة من الليل هو ممارسة صعبة ثقيلة عليه ، ومن شأنها أن تقوى النفوس ، وتشدّ العزائم ، وتصلّب الأبدان . ولا ريب أن التمرس بالجاحدين ومصاولتهم وطول النزاع معهم يحتاج إلى نفوس قوية ، وأبدان صلبة .

هذا هو تأثير ناشئة الليل فى الأجسام والنفوس .أما تأثيرها فى تعقل الوحى ، واستبانة معانى الخطاب الإلهى — فلا يقل عن التأثير الأول . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وأقوم قيلا ﴾ .

[القيل] مصدر كالقول والقال . و[أقوم] أى أعدل وأبين وأسدّ وأثبت . والمعنى أن تلاوة القرآن ودراسة الوحى فى الليل أو فى صلاة الليل وتفهمه والتأمل فى معانيه أبين وأسدّ وأتم فى الليل منها فى النهار ؛ فإن هدوّ الصوت فى الليل ، وسكون الحركة فيه — أجمع للقلب ، وأعون للنفس على التدبر والتفطن والتأمل فى الأسرار والمقاصد . وهذا أمر محقق يعرفه كل من امتطى صهوات الليال ، إلى نيل المطامح والآمال .

ثم رجع الوحى إلى بيان الحكمة فى تحمل مشقات قيام الليل ودراسة القرآن فقال : ﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا ﴾ أصل معنى السبح العوم على وجه الماء أو المرور السريع فى الماء ، ثم استعير للمرور السريع فى الهواء ، فيستعمل فى الطير والفرس ، ومنه "سبوح لها منها عليها شواهد" . ويستعمل أحيانا فى التصرف فى الأشغال ، وسرعة المرور فى الأعمال . وهو المراد هنا : يقول إن لك فى النهار تصرفا وتقلبا ، واشتغالا طويلا فى مهمات الوظيفة المقدسة الموكولة إليك ، وهى دعوة المشركين إلى دينك ، ومجادلتهم فى بطلان ما هم عليه من الشرك . ومثل هذا العمل الشاق لا يقوم به إلا من توفرت فيه القوتان : قوة الجسم وقوة النفس . وإن ناشئة الليل ، والقيام فيه للعبادة وتلاوة القرآن — مما يساعد على ذلك ، ويكسب جسمك صلابة ، ونفسك متانة لممارسة هذا العمل الشاق فى النهار .

قد يعترض معترض بأن قيام الليل وطول التهجد فيه يضعف الجسم عن المقاومة والمكافحة ، فكيف يكون وسيلة للقوة والجلادة ؟ هذا الاعتراض نفسه أورد على سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وأجاب عنه . وهذا نص قوله :

" وكأنى بقائلكم يقول : إذا كان هذا حال ابن أبى طالب (أى من التخشن والتهجد والتقلل من الطعام) فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ، ومنازلة الشجعان . ألا وإن شجرة البرية أصلبُ عودا ، والروائع الخضرة (أى الأعشاب اللينة) أرق جلودا ، والنابتات البدوية أقوى وقودا ، وأبطأ خمودا . وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو ، والذراع من العضد (أى أنه هو وسيدنا الرسول من أصل واحد فى العمل والطريقة وأسلوب المعيشة فيكون فى حالته كما كان سيدنا الرسول : شديد البأس قوى العزيمة وإن كان خشن المعيشة) ثم قال : " والله لو تظاهرت العرب على قتالى ما وليت عنها . ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها اهـ " هذا ما قاله على رضى الله عنه . ومنه تعلم أن الرياضات البدنية من الصيام والقيام والتقشف إذا روعى فيها الاعتدال المشروع أدت إلى قوة الجسم ومتانة العزم ، لا إلى ضعفهما .

وقد تحصل من الآيات السابقة ثلاث مقدمات :

(١) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النوم والعزلة والتلفف فى الثياب كما يكون من شأن المتراخى المتفصى من التعرض للأخطار فى سبيل القيام بوظيفته .

(٢) حضه صلى الله عليه وسلم على قيام الليل إلى حد محدود ودرس الوحى الذى يلق عليه درسا عميقا كى يقوى على أداء وظيفته .

(٣) بيان صعوبة أمر الدين ، وعسر الدعوة إليه ، وأن على الداعى أن يبذل الجهد العظيم ويقضى الوقت الطويل فى مصاولة الجاحدين ، وجدال المبطلين :

وبعد أن قرر الخطاب الإلهى هذه المقدمات التى هى بمثابة تمهيد وبساط للدعوة انتقل إلى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بها نفسها وتعليمه كيفية السير فيها عملا بعد أن مهدها له نظرا ،

وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾

فقال تعالى : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾ أى بعد أن يتم لك ما تريد من تقوية بدنك ونفسك بواسطة الطاعات والعبادات الليلية ودرس الخطاب الإلهى درسا مدققا — باشر وظيفتك النهارية ، وهى دعوة الخلق إلى الحق ، وإلزامهم بخلع الأوثان وما يعبدون من دون الله :

فقوله (واذكر اسم ربك) مثل ما تقول لآخر "سم الله" وأنت تريد حضه على الأخذ بعمل فيه مشقة ، وإيذانه بحلول وقته . كأنك تقول له : هيا باشر وظيفتك ، وقم بالعمل الذى أمرت به ، فقد جاء وقت الشروع فيه .

أو المراد بقوله : (واذكر اسم ربك) ارفع صوتك بذكر ربك ، وأعلن صفاته الحقيقية بين أظهرِ المشركين ، وادعهم إلى عبادته وحده ، وخلع الأصنام .

ثم علم الله نبيه أن يكون مقبلا على ربه ، منصرف الهمة إليه وحده ، فقال : (وتبتل إليه تبتيلا) . أى انقطع إليه انقطاعا تاما ، وأخلص إليه إخلاصا عاريا من الشوائب ، ولا تدع نفسك تعتمد فى شأن من شئونك على غيره تعالى ، وهذا هو التوحيد الحقيق ، أما إذا شاب الاعتقادَ بالله شوبُ استمدادٍ روحانيٍ من غير الله فإنه يكون ولا ريب شوبا من حميم ، ولا يكون صاحبه من أمر عقيدته على الصراط المستقيم .

وأصل معنى البتل القطع كالبت والبتر والبتك ، ثم غلب التبتل على الانقطاع عن الدنيا إلى الله ، ومنه "البتول" لقب السيدة مريم ، وقيل سميت به لانقطاعها عن الزواج ، ويقال : بتل إلى الله ، كما يقال : تبتل إليه .

وكان الظاهر أن يقول فى تأكيد (تبتل) فى الآية "تبتلا" لا "تبتيلا" فإن التبتيل مصدر بتّل لا تبتل ، لكن لما كان معنى تبتل : بتّل نفسك ، جاز أن يؤكد تبتل بالتبتيل ميلا مع هذا المعنى ومراعاة لحق الفواصل ، وقد مر مثله فى قوله تعالى : (والله أنبتكم من الأرض نباتا) ومثاله فى كلام العرب قول شاعرهم :

وخير الأمر ما استقبلتَ منه وليس بأن تَتَبَّعَهُ اتباعا

فإن "تتبعه" من التفعل و"اتباعا" من الافتعال ، وكان الظاهر أن يقول "تتبعه تتبعا" .

رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

ثم استدل على وجوب الانقطاع له وحده وترك إشراك غيره به بقوله﴿رب المشرق والمغرب﴾ أى هو وحده الذى يربى المشرق والمغرب ويدبر أمورهما .

و (المشرق والمغرب) يكنى بهما عن الكائنات كلها والخلائق بجملتهم ، وإن التقابل فيهما يشعر بالإحاطة والشمول وإرادة الجميع كما يقولون : "من الباب إلى المحراب" يريدون كل ما فى الدار لا بابها ومحرابها وحدهما ، ومحراب الدار صدرها ، ومعنى كونه تعالى ربَّ الكائنات أنه رباها ومهد لها سبيل النمو والرقى والانتقال فى التكامل من طور إلى طور كما يربى الشخص ابنه أو فلوه أو فسيلته (١) .

وقد يكون فى تخصيص كلمتى (المشرق والمغرب) بالذكر وبكونه ربهما إشارةٌ إلى الاستدلال على وحدانية الله ووجوب الانقطاع إليه بطريق عقلى : كأنه يقول : إنك أيها الإنسان لو تأملت فى الكائنات كلها من شرقها إلى غربها لوجدتها من حيث التكوين والتركيب واتساق السنن والنواميس على نمط واحد ، ووتيرة واحدة : ادرس طبيعة الكائنات فى أقصى الشرق ثم ادرسها فى أقصى الغرب تجدها خاضعة لنواميس طبيعية واحدة ، وسنن إلهية متساوية متقاودة : لا تتبدّل ولا تتغير ؛ فخالقها الحكيم الذى أبدعها على هذه الصورة ، وأفرغها فى هذا القالب — هو واحد لا متعدّد . الكائنات فى الشرق والغرب واحدة فى تكوينها فخالقها واحد فى وجوده . الكائنات ذات وحدةٍ فى الطبيعة والتكوين والقوة والجواهر الفردة وتعاور النواميس ، فلا جرم أن تكون تلك الكائنات منبعثة عن إله مختار ذى وحدةٍ حقيقية فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فيكون فى ذكر (الشرق والغرب) إشارةٌ إلى دليل عقلى وطبيعى على أن الخالق لهذه الكائنات واحد أحد ، فرد صمد ، لا شريك له ولا ولد ، فلا يجوز إذن الاستمداد وطلب الإسعاد من غيره تعالى ، ولذلك عقبه بقوله : ﴿لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾ أى اعتمد يا محمد عليه وحده فى دعوتك البشر إلى الإيمان ، وهذا الخطاب وإن كان موجها إليه صلى الله عليه وسلم فإن القصد منه التعريض بالمشركين ، وإسماعهم ما يحذر بهم أن يفعلوه هم أنفسهم الذين يعبدون الأصنام ، ويتوكلون عليها ، ويوفضون (٢) فى الشدائد إليها ، لا هو صلى الله عليه وسلم .

(١) الفلو — كقنو ، وعدو ، وسمو — : الجحش والمهر فطما أو بلغا السنة ، والفسيلة : النخلة الصغيرة . القاموس .

(٢) يوفضون : يسرعون .

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾

ظهر مما تقدّم كيف انتقل الخطاب الإلهى بالنبى صلى الله عليه وسلم من ساحة الاستعداد والتهيئة الليلية إلى ساحة العمل وممارسة الدعوة النهارية ، وبديهى أنه سيجد أمامه فى الساحة الثانية سدا منيعا من المكذبين المقاومين : كلهم يردّون عليه ، ويسفهون رأيه ، ويزعمون فيه المزاعم الباطلة : من مثل أنه — وحاشاه — ساحر أو مجنون أو طالب رياسة دنيوية فى نظير ذلك ، ولكن الله تعالى رباه التربية المتينة التى تجعله يصبر على هذه المشاغبات والمناقضات .

ولذلك قال له بعد أن أمره بالدعوة النهارية : ﴿واصبر على ما يقولون﴾ ، أى إذا دعوتهم فى النهار وعارضوك ، وتقوّلوا عليك الأقاويل — فاصبر عليهم يا محمد ، وتجلد لقولهم ، ﴿واهجرهم هجرا جميلا﴾ ، أى أعرض عنهم إعراضا لايشوبه أذى ولا شتم ولا مقاومة ريثما يتمرّن أصحابك بالعبادة والمجاهدة الليلية على المناجزة والمجاهدة النهارية وتكون بذلك قد تهيأ لك الرِّدء ، واستوسقت العصبية ، وتوفرت أسباب الغلبة والظهور عليهم . أما الآن أى قبل أن تصل أنت وأصحابك إلى هذا الطور طور المقدرة على إعمال السيف والسنان — فينبغى الصبر والاقتصار على الدعوة باللسان .

تقول ومن أين أخذت هذا المعنى ؟ فأقول : من قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، إن لدينا أنكالا الخ ﴾ يقول الله لنبيه : اعمل الآن أنت وأصحابك بما أمرتكم به من قيام الليل ، وترويض النفس بالطاعات ، ومختلف التكاليف الشاقة ، حتى إذا تكاملت تربيتكم الجسمية والنفسية ، وتوحدت طرائقكم الدينية والروحية ، وبقى أولئكم المكذبون أعداؤكم منغمسين فى ترفهم وتنعمهم ، منهمكين فى ملذاتهم وشهواتهم — فإن من شأن حالتهم هذه أن تفسد تربيتهم وأخلاقهم ، وتنهك قواهم وأجسامهم ، على حين تكونون أنتم بواسطة الرياضة والعبادة والمجاهدة وتحمل المشاق على العكس منهم [1] ، فحينئذ (ذرنى) ، أى دعنى

[1] ويشبه هذا من وقائع التاريخ ما كان من سكان الأندلس (القوط) المترفين الذين استولى العرب الأشداء على بلادهم فما كان منهم إلا اللجوء والانحياز إلى جبال (استور ياس) أو (استوريش) كما يسميها العرب وهى جبال شامخة قاحلة واقعة فى الشمال الغربى من اسبانيا فاكتسب اللاجئون من بيئتها غلظة وقوةوخشونة حتى إذا اكتملت لهم هذه التربية فى بضع مئات من السنين انقضوا من قنن جبالهم كالعقبان على أولئك الوادعين المترفين ، فاجلوهم عن صياصيهم ، وطبقوا سنة الله فيهم .

وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾

والمكذبين ، أى إنك لا تحتاج فى نيل الظفر بمرادك والانتقام من مكذبيك إلا إلى أن تتكل علىّ ، وتفوض الأمر إلىّ ، وتدعنى وهؤلاء المكذبين ، أطبق عليهم سنتى فى خلق ، وذلك بأن أسلط القوىّ وهو أنتم على الضعيف وهو هم ، وأمكن أوليائى الذين يعملون بأوامرى ويراعون سنتى — من أعدائى الذين يخالفونها ، ثم يحيق بهؤلاء المخالفين العقاب ، ويدخلون بشؤم مخالفتهم دار العذاب . وهذا معنى قوله تعالى : (إن لدينا أنكالا وجحيما) .

و[الأنكال] جمع نكل — بكسر أوله — وهو القيد الثقيل . و[الجحيم] دار العذاب . و[الطعام ذو الغصة] هو ما أعده الله فى تلك الدار من الطعام المنكر البشع الذى ينشب فى حلوق آكليه فيغصون به ، ولا يقدرون على إساغته .

ذكر الوحى العذاب المؤلم ومكانه وهو الجحيم ، وآلاته وهى القيود وطعام الزقوم ، وأراد تخويف المكذبين وتهديدهم بأنه تعالى يعاقبهم بذلك كله إن بقوا مستمرين فى تكذيبهم ، مستمرئين مرعى غيهم . روى أن الحسن البصرى أُتى بطعام فطوره فى بعض أيام صومه ، فعرضت له هذه الآية : ﴿ إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ ، فقال لغلامه : ارفعه يا غلام . ووُضع عنده فى الليلة الثانية ، فعرضت له فقال : ارفعه يا غلام . وكذلك الليلة الثالثة . فبلغ خبره ثابتاً البُنانىّ ، ويزيد الضبى ، ويحيى البكّاء — فجاءوا إليه ، ولم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق .

ولقد تبين من سياق الآيات التى افتتحت بها هذه السورة أن تربية الجسم والنفس بضروب التكاليف والرياضات والعبادات الشاقة هى مما أراده الله لنا ، وحضنا عليه فى الكتاب ، ولم يكن طلبها منا لذاتها ، أو لاسترضائه تعالى بممارستها ، ومكابدة أتعابها . كيف وقد قال تعالى : (لن ينَالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها) ، وإنما أراد سبحانه بهذه التكاليف والمجاهدات تربيتنا تربية دينية : تجمع بين قُطْرَى القوتين : القوة فى الجسم ، والقوة فى النفس بحيث تفتح أمامنا طريق التغلب والتمكن من نشر الاسلام ، كما حصل لأسلافنا مذ عملوا بأصول تلك التربية ، وتحول بيننا وبين الاستكانة والخضوع لغيرنا ، كما حصل منا اليوم مذ أهملنا تلك الأصول وفرطنا فيها ، وقصرنا فى تطبيقها ومراعاتها . والأمر لله العلى الكبير .

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾

﴿يوم﴾ متعلق بمضمون الكلام السابق، أى أن العقوبة معدّة للمكذبين فى هذا اليوم الذى فيه ﴿ترجف الأرض والجبال﴾ أى تضطرب وتتزلزل بما عليها زلزلة شديدة، وذلك يوم القيامة، ولما كانت الجبال صلدة جامدة بالنسبة إلى سائر أجزاء الأرض — خصها بوصف ما ينوبها فى ذلك اليوم من التفرق وتناثر الأجزاء فقال : ﴿وكانت الجبال كثيبا﴾ تلا من الرمل سائلا متناثرا : من كثب الماء إذا صبه، وكثب الشيء إذا جمعه : ففى مادة الكثب معنى الصب والجمع ، ومن هنا سمى الكثيب كثيبا ؛ لأن الرياح تحمل الرمال من ها هنا وها هنا وتصبها فى مكان الكثيب، ثم تأخذ الرمال الأخرى تتجمع عليها وحولها حتى يتكون الكثيب ، ورمل هذا الكثيب إذا حرك أومس تساقط وتتابع بعضه إثر بعض ، وهذا معنى كونه ﴿مهيلا﴾ وهو اسم مفعول ، وأصله مهيول كمكيل أصله مكيول : يقال هلت الرمل فانهال إذا حركت أسفله فسال من أعلاه وتتابع ، وما كان أشدّ تماسكا وكثافة من الرمل كالبناء مثلا فانه يقال فيه هرته — بالراء — فانهار .

يقع هذا الحادث الجلل فى العالم عندما يتأذن الله بخرابه وانقضاء أجله ، ثم يستبدل به عالما آخر أشدّ إحكاما ، وأثبت نظاما ، وأكمل أمنا وسلاما .

ونصوص الكتاب تدل على أن خراب عالم الدنيا يكون بزلزلة الأرض ، وتبدّد أجزائها ، وتسيير جبالها بحيث تصبح هذه الجبال كالكثيب المهيل أو العهن المنفوش .

على أن هذا الخراب الذى ينزل بالأرض فينسف جبالها ، ويمزق أوصالها — ليس خاصا بها وحدها، بل هو نازل بمجموع عالم الدنيا المنظور إلينا : أرضه وسمائه ، وسائر كواكبه وأجرامه، بدليل آيات الكتاب الأخرى من مثل : (إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت) و (إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت) والله يعلم بأى سبب يحصل ذلك الخراب العام وما إذا كان وراء الكواكب المنظورة عوالم وكواكب أخرى يشملها الخراب المنتظر أو لا يشملها فتبقى سالمة من مثل ما نزل بعالمنا إلى أن يشاء الله خرابها ، وهل ينشئ ربنا العالم الأخروى فى ساحات العوالم السماوية الأخرى غير المنظورة أو ينشئه عالما جديدا ، وكونا مستقلا لا علاقة له بالعوالم الغائبة اليوم عن عيوننا ؟ كل ذلك غيب لا تمكن معرفته ، فنكل أمره إلى الله سبحانه وتعالى .

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾
فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾

يتراوح الوحى الإلهى فى تخويف المخاطبين بين تذكيرهم بيوم القيامة وما أعده الله فيه للمكذبين وتذكيرهم بالأمم التى خلت من قبلهم وكيف عصت وتمردت فأنزل بها من أمره ما أنزل ، وقد أتى فى هذه الآيات على الأمرين معا .

وقوله : ﴿رسولا شاهدا عليكم﴾ يعنى به محمدا صلى الله عليه وسلم ، فإنه يشهد بلسان مقاله أنه بلّغهم أمر ربه إليهم ، أو أنه صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم بلسان حاله ، فإن من تصفح أحواله واستقرأ ما جرى له فى حياته منذ ولد فنشأ ، فبعث ، فدعا الناس إلى الإيمان ، فاستأثر الله به — لم يجد فى ذلك كله إلا آية صادقة ، أو معجزة خارقة : تثبت أنه رسول الله إلى الناس ، لم يأل فى تبليغهم ، ولم يتوان فى إمحاض النصح لهم . فحاله هـذه شاهدة على أولئك المكذبين أنه إنما يبلغهم ما به نجاتهم فى الدنيا والآخرة ، وأنه لم يبغ من وراء ذلك التبليغ جر مغنم لنفسه ، أو تأسيس ملك لعقبه ، بحيث يصدق عليه ما وَصَفَ به سيدُنا على بن أبى طالب نفسَه مذ قال : " فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا ، ولا ادخرت من غنائمها وفرا ، ولا أَعْدَدْت لبالى ثوبى طمرا " .

والرسول الذى أرسله تعـالى إلى فرعون هو موسى الكليم صـلوات الله عليه . وقد نكّره مذ قال ﴿رسولا﴾ لإفادة تعظيمه . كأنه يقول رسولا عظيما من أولئكم الرسل أولى العزم . أوأنه نكّره للاشارة إلى أنه متعين لا يلتبس بغيره . وقوله ﴿الرسول﴾ أى ذلك الرسول : فأل فيه العهد الذكرى . وأَخْذُ الله لفرعون كناية عن إهلاكه ، و[الوبيل] فى مطلق معناه الثقيل الشديدالضخم . فإذا قالوا : طعام وبيل ، أوكلأ وبيل ، أو مرعى وبيل — أرادوا أنه وخم ثقيل على آكليه : لا يستمرئونه ولا يهضمونه . وإذا قالوا : مطر وابل أو وَبْلٌ — أرادوا أنه شديد الهمر كبير القطر . والوبيل العصا الضخمة . وتقول العرب : " لقد أَوْبَلْتَ علىَّ شَرَّك " أى أغلظته على ، وبهظتنى به ، و "وَبَلَ فلانا بالسياط" تابعها عليه بشدة وعنف . وكل هـذه المعانى تقال تقريبا فى (الوبال) ، فقوله تعالى : (ذاقوا وبال أمرهم) ، وقوله هنا ﴿أخذناه أخذا وبيلا﴾ — الكلمتان فيهما منحوتتان من نبعة واحدة . ولا جرم أن إهلاك الله لفرعون وقومه بالغرق كان باهظا لهم ملحا عليهم بحيث لم يفلت منهم أحد .

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾

بعد أن ذَكَرَ الله أخذه لفرعون في دار الدنيا ، وأن ملكه وجبروته لم يمنعاه من ذلك الأخذ عاد فذَكَّرَ مكذبي قريش — الذين ضرب فرعونَ لهم مثلا — بيوم القيامة ، وأنهم غير معجزي الله في ذلك اليوم ، ولا مفلتون منه بأنفسهم كما لم يفلت فرعون مما فعل به ، فقال لهم :

﴿ فكيفَ تتقون ﴾ ، أي تحذرون وتخافون ﴿ إن كفرتم ﴾ ، أي أصررتم على الكفر — ﴿ يوما ﴾ وهو يوم القيامة وعذابه الشديد بل الأشد وبالا وغلظا من عذاب الله لفرعون في دار الدنيا ، فيوما مفعول به لتتقون على معنى تحذرون وتخافون كما قلنا ، يقال " اتقى الله " ، و " اتقى عذاب الله " أي حذره وخافه ، و " ما أَتْقَى فلانا لله " ، أي ما أخوفه وأخشاه له . وأصل معنى اتقى العذاب ، أو الأسد ، أو البرد ، اتخذ لنفسه وقاية من العذاب أو الأسد أو البرد ، ثم كثر حتى صار بمعنى خاف وحذر ، ونصبوا به المفعول . والمعنى هنا : كيف يصح أن تكونوا حذِرين خائفين يوم القيامة ، أو كيف يصح أن تعدّوا أنفسكم حذرين خائفين ذلك اليوم إن بقيتم هكذا متمادين في كفركم ، مقيمين على ضلالتكم ؟

ثم وصف ذلك اليوم بأنه ﴿ يجعل الولدان شيبا ﴾ ، والولدان جمع وليد ، كما أنّ الأولاد جمع ولد ، (شيبا) جمع أشيب وهو مَن ابيض شعر رأسه . ولا مانع من أن يكون الرعب أو الغم سببا في حدوث الشيب في الرأس ، ولو فرضنا أن هذا لم يثبت فنا ، فيكون الكلام واردا على ما جرى به العرف بين العرب منذ القديم ، يقولون : " يوم يشيب نواصي الأطفال " ، فخوطبوا في القرآن بما ألفوا ، وما زال العرف به إلى يومنا هذا : قال أبو الطيب :

والهم يخترم الجسيمَ نحافةً وَيُشيبُ ناصيةَ الصبي ويُهرم

على أنّ الهول والغم إن كانا يشيبان الكبير لاضطراب قلبه وتأثر عصبه من شدّة وقعهما ولذع ألمهما فما بال الصبي الغافل ؟ وكيف يمكن أن يبلغ الحزن أو الخوف من نفسه إلى حد أن يُشيب ناصيته ، وينغص عليه حياته ، ولا سيما إذا لاحظنا أنّ الولدانَ غيرُ مكلفين ولا مؤاخذين

ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾

فلا يلحقهم رعب ولا ذعر يوم القيامة ؟ فلم يبق إلا أن المراد من الآية المبالغة فى وصف اشتداد الكرب ، وتفاقم الخطب .

وهول يوم القيامة إن كان يؤثرهذا الأثر فى نواصى الولدان فيشيبها ويغير لونها — فلا عجب ؛ إذ أن هناك ما هو أقوى جسما ، وأضخم جرما من لم الولدان وشعر رءوسهم وهو ﴿السماء﴾ أى بناء السماء وسقفها المرفوع فوق رءوسنا فإنه ﴿ منفطر ﴾ أى متصدع ومتشقق ﴿ به ﴾ أى بهول ذلك اليوم الذى يجعل الولدان شيبا ؛ فالتغير والتحوّل والتأثر بهول ذلك اليوم ، وعظم ما يقع فيه — عام شامل : يتناول أدق المواد وألينها وألطفها ، كما يتناول أشدّ المواد وأصلبها وأضخمها . و(انفطار) السماء انصداع أجرامها ، وتبدّل أوضاعها ، فلا يعود حالهـا على ما هو عليه اليوم . وذَكَّرَ فعل السماء فقـال (منفطر) ولم يقل (منفطرة) كما هو الاستعمال الشائع — تمايلا إلى إرادة البناء والسقف فى معناها . على أن (السماء) وردت فى كلام العرب مذكرة ، قال شاعرهم :

فلو رفَعَ السماءُ إليه قوما لحقنا بالسماءِ مع السحاب

فالسماء فاعل [رفع] ولم يقل رفعت . يريد الشاعر أن السماء لو كان من عادتها ودأبها أن ترفع إليها قوما لفضلهم وعزتهم ومجدهم لرفعتنا إليها ، ولَكُنَّا مقيمين فيها مع سحابها . أو يقال إن السماء مؤنث غير حقيقى ، ويجوز فى مثله تأنيث فعله وتذكيره ، وقوله : ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ تحقيق وتأكيد لمـا وعد الله به : من وقوع ذلك اليوم ، ولن يخلف الله وعده ، مهما طال أمده وتنوسى ذكره . فلينتبه إليه الغافل ، وليعمل للخلاص من هوله العامل .

وضمير (وعده) يرجع إلى الله وإن لم يجر له ذكر فيما تقدم من الكلام ؛ لمـا أن المقام يعينه . أو هو التفات من المتكلم فى قوله (فأخذناه) إلى الغيبة فى (وعده) . وكان الظاهر أن يقول : (وَعْدُنا) ، فعدل إلى ضمير الغائب تفننا فى الكلام ، وتطرئة للأسلوب . ويحتمل أن (وعده) من إضافة المصدر إلى مفعوله ، ويكون الضمير راجعا إلى اليـوم المتحدث عنه . والمعنى كان وعد الله بذلك اليوم مفعولا ، وأمره كائنا لا محالة .

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ
أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ

﴿ هذه ﴾ إشارة إلى الآيات السابقة ونظائرها مما فيه تخويف المكذبين من يوم القيامة وأهواله ، أو تخويفهم من أن يأخذهم الله فى عاجل دنياهم كما أخذ فرعون بعذابه ونكاله . ﴿تذكرة﴾ عظة وعبرة تذكر الناسى فيذّكر ، وتتلتل الغافل فيعتبر . ﴿فمن شاء﴾ من الغافلين الناسين أن يستفيد من هذه التذكرة قبل الفوت ﴿ اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ أى سلك الطريق المؤدية إلى رضاء ربه ، فعَمِل بطاعته من دون مِطال ولا تسويف ؛ فإن الأسباب ميسرة ، والسبل إلى العمل الصالح مشرعة ، والاختيار من الله للعبد موهوب ، وكل من الخير والشر مقدور ومكسوب ، قال تعالى : (وهديناه النجدين) ، أى رفعنا أمام عينى كل واحد منكم أيها البشر طريق الخير والشر ، ودللناه عليهما بما وهبناه من نعمتى الوحى والعقل ؛ فما عليه إلا الاستعانة بنا فى الوصول إلينا ، وأن يختار ماهو الأجمل به ، والأصلح له . فليَرْتَد امرؤ لنفسه، قبل حلول رمسه ، وتحول غده إلى أمسه . روى عن الحسن البصرى أنه قال : بلغنى أن رسول لله صلى الله عليه وسلم قال : أيها الناس ، إنهما نجدان : نجد الخير ، ونجد الشر . فما لذى جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ؟

قوله : ﴿إن ربك يعلم الخ﴾ له اتصال بأوّل هذه السورة مذ قال تعالى : (قم الليل إلا قليلا : نصفه أو انقص منه قليلا) . وقد قلنا ثَمّة : إن الوحى الإلهى كلفهم أن يقوموا ساعات من الليل طويلة : لا تقل عن ثلثه ، ولا تزيد على ثلثيه ؛ فإن قيام الليل على هذه الصورة ، وإحياءه بالطاعات المختلفة : من ذكر ، وصلاة ، وقراءة قرآن — يقوّى أبدانهم ونفوسهم معا ، ويعوّدهم الخشونة فى العيش واجتناب ما عليه المترفون من الراحة والرخاوة والانغماس فى الملذات إلى حدّ أن تضعف هممهم ، وتنصرف نفوسهم عن جسام الأمور إلى دنياتها ومحقراتها . كلفهم ربهم ذلك العمل الليلى تقربا إليه ، واستعدادا للدعوة ، وقرع الرءُوس العاتية بها .

والخطاب فى فاتحة السورة للنبى صلى الله عليه وسلم وحده مرادا به أمته معه بدليل قوله هنا : ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ ؛ فإن صحابته رضوان الله عليهم قاموا قيامه ، وساهموه صلاته وصيامه ، ولبثوا فى ذلك عشر سنين ، وقيل أقل من ذلك ، وهى مدة كافية لحصول أثرها من

وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ

الإعداد والتهيئة واستجمام التربية الدينية التى أرادها ربهم لهم . وبعد مضى عشر السنين المذكورة نزل الوحى خطابا له صلى الله عليه وسلم ولصحابته القائمين معه فى الليل بهذه الآية : (إنّ ربك) يامحمد (يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه) .

لا يشتبه أحد من المخاطبين فى أنه تعالى يعلم ذلك ، فلم يكن المراد منه إفادة أنه تعالى عالم به ، بل إفادة أنه وقع منكم ذلك ، وبلغتم به رضاه ، والحدّ الذى أراده ورسمه لكم ؛ فهو مجازيكم عليه ، موفقكم إلى نيل الغرض الذى قمتم وتعبتم من أجله . واستعمال العلم بهذا المعنى مثله فى قوله تعالى : (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) . فليس المراد به إفادة العلم بتكذيبهم ، بل إفادة أنه تعالى مرصد لهم العقوبة على تكذيبهم .

وقوله : (أدنى من ثلثى الليل) — [الأدنى] فى أصل معناه الأقرب مسافة ، لكن لما كان البعد الأقرب مسافة أقل أحيازا ومقاييس سموا الأقل أدنى . وقيام النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته تارة أقل من ثلثى الليل ومرة نصفه وأخرى ثلثه — هو معنى ما قلناه فى : (قم الليل إلا قليلا الخ) . إنهم أمروا بأن يتراوح قيامهم بين الثلث والثلثين ؛ فهو تعالى يقول : فعلتم ما أمرناكم به من قيام الثلث إلى الثلثين ، والغاية غير داخلة كما دل عليه قوله (أدنى) .

وقوله : (وطائفة) بالرفع عطف على ضمير تقوم . وجاز ذلك للفصل بينهما . يعنى تقوم أنت يامحمد ، وتقوم طائفة من صحابتك الذين معك ، ويمشون على أثرك فيما آمركم به جميعا وأنهاكم .

وجعلهم طائفة لأنه أراد بهم أولئك السابقين فى الإيمان ، الذين هم أول من كلفوا هذا التكليف الشاق .

أما وقد تم ما أراده الله بهم ، ورضيه لهم : من تمحيصهم وتقويتهم ، وتربيتهم التربية الدينية بواسطة ما شرعه لهم من قيام الليل فى هذه السنين العشر — وقد كان فى خلالها انضم إليهم ودخل فى دينهم من لا يصبر صبرهم ، ولا يطيق ما أطاقوه من المجاهدة والقيام والتبتل — فقد خفف عنهم ذلك ، وردّهم إلى ما يطيقون من العمل وقيام الليل ، باعتبار مجموعهم لا باعتبار كل فرد منهم ، وإن كان بعضهم قد يطيق البقاء والدوام على ما كلفه أولا . لكن الخطاب

عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ

الإلهى والتكاليف الشرعية إنما يراعى فيها مجموع المخاطبين ، وعامة المكلفين لا الآحاد منهم . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ ، أى علم أنكم لا تطيقونه بمجموعكم ، وقد ظهر عليكم — بعد أن دخل فى الإسلام منكم داخلون آخرون — شىء من الضعف والفتور ، والعجز عن القيام بما قام به إخوانكم الأولون ، فطلبتم التخفيف والتيسير لمجموعكم . وهذا الطلب حق لكم بحسب الطبيعة البشرية الغالبة ، وإجابتكم عليه مما تقتضيه رحمة ربكم وعدله ﴿ فتاب عليكم ﴾ ، أى رجع عليكم بالتيسير والتخفيف مذ رجعتم إليه بالشكوى والطلب والدعاء ﴿ فاقرأوا ﴾ من بعد اليوم فى قيام الليل وأنتم فى صلاة أو غير صلاة ﴿ ما تيسر من القرآن ﴾ ، ومهلت عليكم تلاوته وتدبره ، وهو القليل من آياته مما لا يستغرق الثلثين ولا النصف ولا الثلث .

وقيل إنّ المراد بأمرهم بقراءة القرآن الصلاة نفسها ، لأن القراءة من أعظم أركانها ، كما يعبر عنها أحيانا بالركعة والسجدة وسيأتى ، أى فصَلُّوا ما تيسر وخف عليكم من صلاة الليل .

والعلم فى قوله (علم أن لن تحصوه) مراد به أيضا ظهور عدم الاحصاء منهم ووصولهم إلى دور تحقق فيه عجز مجموعهم عنه فتجلى ذلك لكل أحد ، وتعلق علم الله تعالى به بعد وقوعه .

وقوله (فتاب عليكم) التوبة هنا بمعنى الرجوع ، وليس المراد بها الصفح والعفو عن الذنب لأنّ الصحابة لم يذنبوا ، ولم يخالفوا ربهم فيما أمر ، وإنما أمرهم على العكس : أطاعوا وقاموا بما كُلِّفوه خير قيام .

و[الإحصاء] فى الأصل التقصى والمبالغة فى عدّ الشيء ، ويستعمل كثيرا فى معنى الطاقة والضبط : يقال : "هذا شىء لا أحصيه" ، أى لا أطيقه ولا أضبطه ، وفى الحديث "خصلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا أدخلتاه الجنة" ، أى لا يطيقهما ولا يقدر عليهما .

أشرنا فى غضون كلامنا السابق إلى أن هناك آحادا من الصحابة كانوا يشعرون من أنفسهم الطاقة على قيام الليل كما أمر الله ورسم ، وربما أحزنهم أن ردّهم الله إلى الأخف الأيسر من العمل وقيام الليل مع بقية إخوانهم المؤمنين الذين يتألف منهم سواد الأمة ، وتمنوا أو تساءلوا لماذا لم يكن الليل أطول مدّة وأوفر ساعات مما هو عليه ، كى يتسع لذكره تعالى ، والتلذذ بتلاوة كلامه ؟ فقال تعالى كاشفا عن حكمته فى ذلك : (والله يقدّر الليل والنهار) وقد تخلل بهذه

عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ

الجملة بين الثناء عليهم بما كان منهم من قيام الليل حسب أمره الأول و بين ظهور عجز الكثيرين منهم أخيرا عن المثابرة عليه ، والمضى فيه ، منبها لهم إلى أنه تعالى هو الذى قدّر الليل والنهار ، أى جعل لكل منهما قدرا معينا ، وحدّا محدودا : لا يتجاوزانه مهما اختلفا وتعاقبا : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) وقد دبر ذلك على حسب مصالح البشر ، و بقدر ما يحتاجون إليه فى سكون ليلهم للنوم والراحة ، وحركة نهارهم للسعى وطلب المعاش ، ولو تحوّلت تلك المقادير إلى غير ما قدّره الله ودبره فى خلق الليل والنهار لاختل أمر البشر ، أو كان لهم نظام فى الحياة غير ماهم عليه الآن ، فالواجب عليهم إذن أن يرضوا بما قدّره لهم ودبره : من نواميس عالمهم هذا ، و يطيعوه فيما رسمه من الحدود والأحكام .

وعدل عن الماضى وهو (قدّر) إلى المضارع فقال (يقدّر) تنبيها إلى صنعه العجيب فى تدبير أمر الليل والنهار ، وتصويرا له فى أذهان المخاطبين .

ومحصل معنى الآيات أنه تعالى كلف الصحابة فى بدء الاسلام قيام ساعات طويلة من الليل ، فاستمروا على ذلك حينا من الدهر ، ثم لما كثر المسلمون ، ودخل فى عدادهم شيوخ ونساء ، ومن لا يطيق قيام الثلث إلى الثلثين من الليل — رسم لهم من القيام والعبادة وقراءة القرآن ما يطيقونه ، ويتحمله طورهم الجديد .

ذكرنا فيما مضى أن تبدّل الحكم فى أمر الصلاة وقيام الليل ناشئ عن تبدل الحالة والزمن وتكاثر المسلمين فى غضون عشر السنين التى قضاها المسلمون السابقون يحيون معظم ساعات الليل فى الصلاة وقراءة القرآن وصنوف العبادات .

وقد صنف الوحى فى هذه الآيات المسلمين إلى أصنافهم التى حدثت فيهم ، وكانت سببا لتغير حكم صلاتهم ، مبينا الحكمة فى ذلك فقال تعالى :

﴿علم أن سيكون منكم مرضى﴾ هذا هو الصنف الأول الذى علم الله وجوده فى المسلمين علما تابعا لتقديره الالهى من أن البشر وفى جملتهم المسلمون يطرأ عليهم أمراض وعلل يتعذر عليهم معها قضاء معظم ساعات الليل فى التهجد والذكر وقراءة القرآن .

وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

﴿وآخرون يضربون فى الأرض الخ﴾ هذا هو الصنف الثانى ، وهم التجار والمسافرون فى البلاد يطلبون الرزق وكسب المال مما هو فضل من الله ونعمة ، فإن هؤلاء أيضا قد تحول أسفارهم والمشاق التى تلحقهم فى خلالها نهارا دون القيام الطويل فى صلاة الليل وقيامه .

﴿وآخرون يقاتلون فى سبيل الله﴾ وهذا هو الصنف الثالث وهم الذين يعملون على نشر دين الاسلام ، والدعوة إليه ، ومحاربة من يتصدى لمنعهم ومقاومتهم . هؤلاء أيضا يتعذر عليهم إحياء الليل تهجدا وقياما ، وقد قتلوا النهار حربا وصداما .

وفى جعل المتاجرين الذين يبتغون الكسب فى مقابلة المجاهدين الذين ينشرون الدعوة تنويه بالتجارة وعلو شأنها فى نظر الشارع ، لأنها من أقوى العوامل فى إعزاز الأمم ، وثبات أمرها . وانتشار تعاليمها وربما كان معظم السبب فى انتشار الاسلام فى أطراف المعمور ولا سيا افريقيا وشرق آسيا راجعا إلى رواد الكسب ، ووراد مناهل الربح ، فقد كان هؤلاء التجار يحملون متاجرهم إلى بلاد الوثنية ويخالطون أهلها ، فيعرضون عليهم بضائعهم مقرونة أحيانا بعرض دينهم وتقاليدهم . والتجار اليوم عند دول الاستعمار آلة من آلات الفتح والتغلب : يرسلونهم إلى البلاد النائية ، ويجعلونهم طلائع للدعاة والمبشرين ، ثم يتلو هؤلاء دعاة الفتح ، وبغاة التسلط والاستعمار .

علم الله وجود تلك الأصناف الثلاثة ، ونشوءهم فى المسلمين ، وربما كان يوجد أصناف أخر غيرهم ، لكن الوحى اقتصر على ذكر ما كان أكثر وجودا من سائر الأصناف ، فاقتضت حكمته تعالى التيسير والتخفيف ، فعاد إلى ذكر ما قاله أولا ، زيادة فى تقرير الحكم ، ولتثبيته فى نفوس المكلفين ، فقال : ﴿فاقرأوا ما تيسر منه﴾ أى من القرآن ، وقوله : ﴿وأقيموا الصلاة﴾ عطف مغاير ، فيكونان شيئين : قراءة قرآن ، وصلاة ذات ركوع وسجود ، أو هو من قبيل عطف التفسير ، ويكون المراد بقراءة القرآن الصلاة نفسها ، لأنهم كانوا إذا صلوا أطالوا صلاتهم ، وقرأوا فيها ما شاء الله أن يقرأوا ، وهذا هو المعبر عنه أحيانا كثيرة بقيام الليل ، فكانوا يفهمون من صلاة الليل ومن قيام الليل ومن قراءة القرآن فى الليل شيئا واحدا تقريبا .

وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

والقصد من ذلك أن قيام الثلث إلى الثلثين من الليل فى الصلاة وقراءة القرآن أصبح شاقا عليكم معشر المؤمنين بعد أن كثرتم ووجد فيكم مرضى ومسافرون ومجاهدون ، فاقتصروا بعد اليوم من فريضة الصلاة وقراءة القرآن على الصلوات الخمس : التى يقع بعضها فى أول الليل ، ومعظمها مفرق فى سحابة النهـار ، لكن عليكم أن تأتوا بهذه الصلاة على وجهها الشرعى : من الخشوع واستحضار القلب ومراعاة الآداب والسنن ، وهـذا هو معنى الإقامة فى قوله تعـالى (أقيموا الصلاة) وقلما ذكر الأمر بالصلاة فى القرآن إلا ذكر معه الأمر بالزكاة ، ولا غرو ؛ فإن الصلاة عماد الأمر بين المرء وربه ، كما أن الزكاة عماد الأمر بينه وبين بنى جنسه .

والمراد بالزكاة زكاة الأموال الواجبة بناء على أن آخر هذه السورة مما نزل فى المدينة حيث فرضت الزكاة ، وقيل السورة مكية كلها ، والزكاة هنا زكاة الفطر .

وقوله : ﴿ وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ — حض على إنفاق المـال فى رضاء الله ، ووجوه المبرات بأبلغ أسلوب . وذلك أن الغنى لا يتأخر عادة عن قرض إخوانه مبالغ كبيرة من ماله ، وربما كان مصير هذا القرض التلف والضياع عليه ؛ فكيف يحسن منه البخل فى أن يقرض الله تعالى بالانفاق على عباده الفقراء والمعوزين ، وقرضه هذا مضمون مصون عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ؟ بل هو يرد عليه يوم القيامة أضعافا مضاعفة .

حث المكلف أولا على إخراج الزكاة المفروضة عليه ، ثم أخذ بضبعه إلى مستوى أرفع فحضه على بذل المـال فى وجوه البر ولو لم يكن ذلك مفروضا عليه ؛ فإنه إذا بذله فى سبل الخير كان كأنه أقرضه لله ؛ لكن بشرط أن يحسن النية فى هذا القرض ، فيبتغى من ورائه رضاء الله لا طلب التعويض من الخلق ، أو الشهرة فيهم ، أو التوصل إلى غرض دنيوى قد يكون حقيرا تافها ، وهذا معنى قوله : (قرضا حسنا) .

ثم ارتقى بالانسان إلى بحبوحة الاحسان المطلق ، فحضه على عمل الخير ، وفعل البر ، وممارسة الفضائل والكمالات الإنسانية مهما كان جنسها : بذلا أو غيره من ضروب الأعمال النافعة التى يتوصل بهـا المؤمن إلى رضاء ربه ، أو خدمة نوعه ، فقال :

وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا
وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

﴿ وما تقدّموا لأنفسكم ﴾ وتفعلوا أيها البشر ﴿ من خير ﴾ ، أىّ خير كان — ﴿ تجدوه ﴾ تلقوا ذلك الخير الذى قدّمتموه فى دنياكم ﴿ عند الله ﴾ يوم معادكم ﴿ هو خيرا ﴾ [خيرا] مفعول به ثانٍ لتجدوه ، و [هو] ضمير فصل بين المفعولين ، وضمير الفصل من عادته أن يقع بين المبتدأ والخبر ، ومفعولا [وجد] أصلهما مبتدأ وخبر ، والمعنى تجدوا مافعلتموه يوم القيامة خيرا لكم منه يعنى أنكم تجدون ثواب الله عليه ، وذلك الثواب المعدّ لكم خير وأكرم وأفضل من صدقتكم التى أنفقتموها ، أو طاعتكم التى مارستموها فى دار الدنيا (فخيراً) الثانية أفعل تفضيل ، بخلاف (خير) الأولى فأنها اسم بمعنى الإحسان والبر والعمل الصالح .

ثم فسر "خيرا" بقوله : (وأعظم أجرا) ، يعنى أن الأجر الذى تجدونه إذا قيس بالعمل الذى قدّمتموه وجدتموه أعظم وأفضل من عملكم ؛ فإن عملكم فانٍ بائد ، أما الأجر عليه فباق خالد .

وقد ختم السورة بإرشاد المنفقين المحسنين إلى أن يطلبوا من الله الصفح والمغفرة ، إذ ربما كانوا لم يخلصوا النية فى الإنفاق ، أو لم يحسنوا العمل فى الإقراض ؛ فيضعوا النفقة فى غير مواضعها ، أو ينفقوها فيما لهم فيه غرض وشهوة ، فإذا ﴿ استغفروا الله ﴾ من ذلك غفر لهم ؛ (فإنه) سبحانه وتعالى ﴿ غفور رحيم ﴾ من شأنه الغفران والرحمة .